2. فكرة عامة عن المماليك

الانطباع :

ما هو أول شئ يجول بخاطرك عندما تستمع إلي كلمة (المماليك) ؟

وما هو انطباعك عنهم ؟ وهل هذه الكلمة من الكلمات سيئة السمعة بالنسبة لك ؟

قد تذكره البعض هذه الكلمة بالصراعات علي السلطة ، والبعض تذكره هذه الكلمة بالعنف والتآمر وقد يتذكر البعض أيضاً الانتصارات والأمجاد والحروب الشرسة وآخرون سيتذكرون الآثار الرائعة والعمارة الضخمة الفخمة وهناك من سيتخيل ذلك العصر كما قرأ عنه دولة مرهوبة الجانب تنعم بازدهار اقتصادي وحضاري وعلمي

لاشك أن كل هؤلاء علي حق بشكل أو بآخر ، فعصر المماليك عصر ثري جداً بالأحداث بل هو مزدحم بالملاحم والبطولات والمآسي أيضاً ، ولكن عن أي نوع من المماليك نتحدث ؟

البحرية أم البرجية أم العثمانية ؟

فليس من الإنصاف أن نضعهم جميعاً في سلة واحدة إذا جاز التعبير ،

يقول المتنبي عن أخت سيف الدولة

وإن تكن تغلب الغلباء عنصرها فإن في الخمر معني ليس في العنب

نعم بكل تأكيد إن الخمر تختلف كل الاختلاف عن العنب بالرغم من أنه مصدرها وكذلك المماليك منهم من كالخمر الجيدة ومنهم من كالخمر الرديئة ولكنهم جميعاً من العنب فحاول أن تتخيل معي عزيزي القارئ هذا المعني ، ولكن لماذا أو كيف حدث هذا الاختلاف ؟

أصل فكرة المماليك ونشأتهم في العالم الإسلامي :

ولكن قبل توضيح الاختلاف بين أنواع المماليك تجدر الإشارة إلي أن المماليك عموماً ليسوا بدعة ايوبية ابتدعها الملك الصالح نجم الدين ايوب فقد تم الاستعانة بهم قبل ذلك أيام العباسيين والطولونيين بل والفاطميين أيضاً ولكننا في هذا البحث معنيين بدولة سلاطين المماليك في مصر وقد ارتبطت بداية هذه الدولة بالمماليك البحرية الذين أعدهم الملك الصالح للقتال ، أما ما قبل ذلك من عمليات شراء للمماليك في العصور السابقة فقد كتب عنها المستشرق السير وليم موير في كتابه "تاريخ دولة المماليك في مصر" (اتخذ خلفاء بغداد منذ أجيال عدة عادة سيئة هددت عرش خلافتهم بالزوال وهي جلب الألوف من العبيد ذوي الأسماء الحوشية من قبائل التركمان والمغول واستخدموهم حرساً لهم ومادة لجيشهم ليناهضوا بهم الجنود العربية فاستفحل أمرهم وقتئذ وأصبحوا سدي الجيش ولحمته فكانوا يأتون عبيداً فلا يلبثون أن يصبحوا ذوي الأمر والنهي في بيت الملك يشعلون نيران الفتن والقلاقل حتي عجلوا أجل الخلافة المنهوكة المنحلة وسلك سبيلهم في ذلك خلفاء الفاطميين فأصابهم مثل ما أصاب من قبلهم ،

وقد نحت دولة الأيوبيين بعدهم هذا النحو إذ كانوا غرباء في البلاد فاحتاجوا إلي الاعتزاز بأمثال هؤلاء ، إن القبائل المقهورة في أواسط آسية كانت لا تري غضاضة في بيع أفلاذ أكبادها للنخاسين الذين كانوا يعدونهم حسن المستقبل والسعادة في الغرب وقد سهل عمل النخاسين ما كان يذاع عن الثروة الكبيرة التي يمكن الحصول عليها بأقل جهد ، لذلك لم يقتصر الأمر علي سبايا الحرب وأسارها بل كان يتدفق علي البلاد الغربية سيل من أبناء القبائل الشرقية لتهافت السلاطين والأمراء علي شرائهم أحياناً بأثمان باهظة)[1] ، انتهي كلام المستشرق ولنا العديد من التحفظات عليه فمنها أنه لم يدرك أن العرب قاموا بتأسيس دولة إسلامية وليس دولة عربية والفرق كبير جداً لأن القومية الإسلامية تسع جميع الجنسيات في جميع مناصب الدولة فكل من دخل الإسلام يمكنه أن يصل إلي قيادة الجيوش الإسلامية والوزارة والسلطنة أيضاً كما حدث لغير العرب ، ولا ننسي أن دولة الروم ودولة الفرس علي سبيل المثال كانت جيوشهم من الفرس والروم فقط أما جيش المسلمين منذ بدايته كان يشمل خالد العربي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي ، أما التحفظ الثاني أن الأيوبيين لم يشتروا المماليك لشعورهم بالغربة وكيف يحدث ذلك وهم مسلمون وسط أمة إسلامية ، أما باقي التحفظات فقد تبدو لك فيما بعد في سياق هذا البحث ، ولكن تم تسجيل ما كتبه هذا المستشرق للدلالة فقط علي وجود فكرة المماليك قبل عصر الملك الصالح بكثير ، وقد حققوا للإسلام العديد من البطولات والانتصارات دون أن يكونوا عرباً ولكنهم دخلوا في العديد من الصراعات علي السلطة فكيف تم لهم ذلك ؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه في هذا البحث

النشأة مختلفة :

يختلف المماليك باختلاف برامج الإعداد الخاصة بكل نوع منهم فالمماليك البحرية مثلاً وهم النوع الأول من المماليك في مصر من ناحية الترتيب التاريخي ، كان لهم برنامج إعداد خاص ، كما أنهم كانوا يجلبون صغاراً لا يعرفون شئ عن العلاقات الاجتماعية الطبيعية فلا يوجد أب يعطف ويرعي ويوجه ولا أم حنون ترحم وتربي ولا أشقاء أو عائلة من أي نوع ، وكذلك ليس لهم وطن سوي مصر فهم لا يعرفون غيره ولا ينتمون لسواه وانقطعت كل صلاتهم بجذورهم وأوطانهم وعائلاتهم ، فهم مثل عجينة طرية ساذجة يمكن وضعها في أي قالب وتشكيلها علي الوجه الذي تريده ، أو الذي يريده الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي كان السبب في إحضارهم إلي مصر وبني لهم قلعة بجزيرة الروضة وقام بتخصيص من يعلمهم ويؤدبهم ويدربهم ليكونوا قوة يستعين بها علي قتال الأعداء وما أكثرهم
تخيل معي أن تمتلك جيشاً خاصاً بك تشكله كما تشاء وتوجهه إينما تريد ولكن لماذا ؟

---

[1] نقلاً عن كتاب تاريخ دولة المماليك في مصر تأليف السير وليم موير وهو كتاب مترجم يحمل رقم 25 من سلسلة كتب صفحات من تاريخ مصر – مكتبة مدبولي

الأسباب :

لماذا فكر الملك الصالح في هذا الحل ؟ وما هي المشكلة أساساً التي تحتاج إلي حل ؟

لقد كان هذا الملك من ملوك الدولة الأيوبية في مصر وهذه الدولة تحديداً كان قدرها منذ اللحظة الأولي هو مواجهة الصليبيين منذ عهد مؤسسها الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي وحتي نهايتها فكانت تصد الحملات الصليبية التي لم تتوقف خلال العصر الأيوبي بالكامل فلم تكد تنتهي حملة حتي تبدأ حملة أخري جديدة وكأن هذه الدولة تواجدت في تلك الفترة من التاريخ لمواجهة الحملات الصليبية ، حتي أن الحملة الصليبية السابعة التي كانت فرنسية خالصة وبقيادة ملك فرنسا آنذاك الملك لويس التاسع استهدفت دمياط ولم تتوجه إلي بيت المقدس الذي هو أسمي أهدافها ،

فلقد أيقنوا أن الطريق إلي بيت المقدس يبدأ من القاهرة ، فسقوط الدولة الأيوبية هو السبيل الوحيد لاحتلال بيت المقدس ، وكان الملك الصالح يعي ذلك جيداً وأدرك طبيعة وحجم المشكلة واحتاج لحل لها

الحاجة لامتلاك قوة :

ولكن ألم يكن الجهاد حلاً مناسباً ؟ ، أقصد أن يعلن الجهاد لتعبئة الجيوش وحشدها لقتال أعداء الأمة كما كان يحدث في العصور الأولي للإسلام ، أم أن روح الجهاد قد ضعفت أو أن الاعتماد عليها وحدها لن يكون مضموناً[2] والعدو علي الأبواب ولابد من امتلاك قوة تحت يده في أي وقت بكل ما تحمله كلمة امتلاك من معاني ، قوة لها عقول لا تعي سوي ما تفهمه منك وحدك ولها قلوب تحب ما تريده أنت أن تحبه ، فالمماليك هم عبيد يدربون علي القتال وليسوا عبيداً للخدمة ، فمن النادر أن تجد مملوكاً يعيش إلي ما بعد الأربعين فالقتال هو الحرفة الوحيدة التي يجيدونها ،

وكما ذكرت فهو ليس له أب يعرفه أو أم يبرها أو شقيق ينصحه فكان لابد أن تنشأ علاقات بديله ، فأبوه أصبح أستاذه الذي اشتراه ودربه علي القتال وأمه هي شيخه الذي أدبه وحفظه القرآن والأحاديث النبوية الشريفة وأخوه هو دفعته أوخشداشه الذي جاء معه صغيراً ونشأ معه ، وهكذا أصبح له ولاء جديد بل قل ولاء وحيد فهو ليس له قديم ليستبدله بجديد ، أما وطنه فهو مصر التي لا يعرف غيرها وأمته هي الإسلام وعقيدته هي الجهاد

برنامج الإعداد أيام الملك الصالح :

وكان الملك الصالح قد أعد برنامج خاص ومميز للمماليك منذ صغرهم ، فكما يقول الدكتور محمود الحويري في كتابه الممتع (مصر في العصور الوسطي) : (- فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالي ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار - - - فإذا صار إلي سن البلوغ أخذ في

[2] لم يكن التجنيد بنظامه الحالي قد عرف بعد فيما يبدو

تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك فيتسلم كل طائفة معلم حتي يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه وعندما ينتهي المملوك من تدريبه ويثبت جدارته ويصير محارباً كفئاً ينقل إلي خدمة السلطان ويتدرج في الرتب حتي يصير من الأمراء –)[3] ، وهكذا قرر الملك الصالح أن يتعلم مماليكه تعاليم الدين وفنون القتال ، فأصبح للمماليك معلمان أو مربيان لكل طائفة منهم أو الأدق أن نقول قدوتان أحدهما دينية والأخري عسكرية ، وقد أصبح كل منهما له شأن عظيم في حياة المماليك ، ولكن لا تنسي عزيزي القارئ فنحن نتحدث عن المماليك البحرية وهم النوع الأول من المماليك الذين لا نريد أن نضعهم في سلة واحدة مع غيرهم ، فبعد ذلك كما سنري لن يأتي المماليك صغاراً لتشكلهم بل كبار يعرفون أوطاناً أخري ولهم جذور ارتبطوا بها كما أن برنامج الإعداد قد يكون مختلفاً ، ويمكننا أن نستعرض معاً ما كتبه المقريزي عن المماليك لنتعرف علي برامج إعداد أخري

بعض مما كتبه المقريزي[4] عن المماليك :

(الطباق بساحة الإيوان) : (عمرها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأسكنها المماليك السلطانية وعمر حارة تختص بهم وكانت الملوك تعني بها غاية العناية ، حتي أن الملك المنصور قلاوون كان يخرج في غالب أوقاته إلي الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك ويأمر بعرضه عليه ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم في جودته ورداءته فمتي رأي فيه عيباً اشتد علي المشرف والاستادار ونهرهما وحل بهما منه أي مكروه وكانت المماليك أبدا تقيم بهذه الطباق لا تبرح فيها ، فلما تسلطن الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، سمح للمماليك أن ينزلوا من القلعة في النهار ولا يبيتوا إلا بها ، فكان لا يقدر أحد منهم أن يبيت بغيرها ، ثم إنه الملك الناصر محمد بن قلاوون سمح لهم بالنزول إلي الحمام يوماً في الأسبوع فكانوا ينزلون بالنوبة مع الخدام ثم يعودون آخر نهارهم ولم يزل هذا حالهم إلي أن انقرضت أيام بني قلاوون ، وكانت للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة : أولها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه علي السلطان ونزله في طبقة جنسه وسلمه لطواشي برسم الكتابة ، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم ، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ، ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالي ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار ، وكان الرسم إذ ذاك ألا تجلب التجار إلا المماليك الصغار ، فإذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه وأقرأه فيه مقدمه ، فإذا صار إلي سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، فيتسلم كل طائفة معلم حتي يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه وإذا ركبوا إلي لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جندي ولا

---

[3] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 238 ، صفحة 239

[4] شيخ المؤرخين المصريين " أحمد بن علي المقريزي " المعروف باسم " تقي الدين المقريزي " ولد وتوفي في القاهرة 764هـ . 845 هـ – (1364م1442 – م) ممن اهتموا بالتأريخ بكل نواحيه. ترك عدداً من الكتابات التاريخية الفائقة الأهمية مثل: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار المعروف باسم خطط المقريزي أو الخطط المقريزية

أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم ، فينقل إذن إلي الخدمة ويتنقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلي أن يصير من الأمراء ، فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه واشتد ساعده في رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح ومرن علي ركوب الخيل ، ومنهم من يصير في رتبة فقيه عارف أو أديب شاعر أو حاسب ماهر هذا ولهم أزمة من الخدام وأكابر من رؤوس النوب : يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافي ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ويناقشونه علي حركاته وسكناته فإن عثر أحد من مؤدبيه الذي يعلمه القرآن أو الطواشي الذي هو مسلم إليه أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه ، علي أنه اقترف ذنباً أو أخل برسم أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا قابله علي ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه ، فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار وتعدي ، وكانت لهم الإدارات الكثيرة من اللحوم والأطعمة والحلاوات والفواكه والكسوات الفاخرة والمعاليم من الذهب والفضة بحيت تتسع أحوال غلمانهم ويفيض عطاؤهم علي من قصدهم ، ثم لما كانت أيام الظاهر برقوق راعي الحال في ذلك بعض الشئ إلي أن زالت دولته في سنة أحدي وتسعين وسبعمائة ، فلما عاد إلي المملكة رخص للمماليك في سكني القاهرة وفي التزوج فنزلوا من الطباق من القلعة ونكحوا نساء أهل المدينة وأخلدوا إلي البطالة ونسوا تلك العوايد ، ثم تلاشت الأحوال في أيام الناصر فرج بن برقوق وانقطعت الرواتب من اللحوم غيرها حتي عن مماليك الطباق مع قلة عددهم ورتب لك واحد منهم في اليوم مبلغ عشرة دراهم من الفلوس فصار غذاؤهم في الغالب الفول المصلوق عجزا عن شراء اللحم وغيره

هذا وبقي الجلب من المماليك إنما هم الرجال الذين كانوا في بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد في تنور خباز ومحول ماء في غيط أشجار ونحو ذلك واستقر رأي الناصر علي أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم بل يتركون وشئونهم ، فبدلت الأرض غير الأرض وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً وأشحهم نفساً وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم إعراضاً عن الدين ما فيهم إلا من هو أزني من قرد وألص من فأرة وأفسد من ذئب ، لاجرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصب النيل إلي مجري الفرات بسوء إيالة الحكام وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولي الأمر حتي أنه ما من شهر إلا ويظهر من الخلل العام مالا يتدارك فرطه ، وبلغت عدة المماليك السلطانية في أيام الملك المنصور قلاوون ستة آلاف وسبعمائة فأراد ابنه الأشرف خليل تكميل عدتها عشرة آلاف مملوك وجعلهم طوائف فأفرد طائفة الأرمن والجركس وسماهم البرجية لأنه أسكنهم في أبراج بالقلعة فبلغت عدتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة وأفرد جنس الخطا والقبجاق وأنزلهم بقاعة عرفت بالذهبية والزمردية وجعل منهم جمدارية وسقاة وسماهم خاصكية وعمل البرجية سلاحدارية وجمقدارية وجاشنكيرية وأوشاقية ، ثم شغف الملك الناصر محمد بن قلاوون بجلب المماليك من بلاد أزبك وبلاد توريز وبلاد الروم وبغداد وبعث في طلبهم وبذل الرغائب للتجار في حملهم إليه ، ودفع فيهم الأموال العظيمة ثم افاض علي من يشتريه منهم

أنواع العطاء من عامة الأصناف دفعة واحدة في يوم واحد ولم يراع عادة أبيه ومن كان قبله من الملوك في تنقل المماليك في أطوار الخدم حتي يتدرب ويتمرن كما تقدم وفي تدريجه من ثلاثة دنانير في الشهر إلي عشرة دنانير ثم نقله من الجامكية إلي وظيفة من وظائف الخدمة ، بل اقتضي رأيه أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة فأتاه من المماليك شئ كثير رغبة فيما لديه حتي كان الأب يبيع ابنه للتاجر الذي يجلبه إلي مصر وبلغ ثمن المملوك في أيامه إلي مائة ألف درهم فما دونها وبلغت نفقات المماليك في كل شهر إلي سبعين ألف ثم تزايدت حتي صارت في سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، مائتين وعشرين ألف درهم)[5]

النزعة الدينية :

أما القاسم المشترك الأعظم لجميع المماليك علي اختلاف أنواعهم وظروف نشأتهم فهو التدريب علي القتال والولاء للأستاذ ، أما باقي المعارف الأخري أو المشارب أو البيئات الحاضنة فتختلف من نوع إلي آخر وإن كانت العقيدة الدينية من الثوابت الراسخة لديهم جميعاً تقريباً فنكاد نلمحها في تصرفاتهم وفي عمائرهم وحتي في صراعاتهم علي السلطة فكل منهم كان حريص علي أن يستمد شرعيته في الحكم من منظور ديني كما سنري ، فنجد مثلاً أن المماليك عندما تولوا الحكم كملوك وسلاطين لا يطمئن أحدهم إلا إذا تم تقليده السلطنة في حضور الخليفة والقضاة الأربعة [6] ومباركتهم ، كما نلاحظ أيضاً هذه النزعة الدينية عندما نقرأ في كتب التاريخ أن كثيراً منهم بعد أن يتولي الحكم ويصبح سلطاناً يقوم باستدعاء كبار رجال دولته والأمراء ليحلفون له بالأيمانات المؤكدة علي عدم الغدر به أو التآمر علي خلعه من السلطنة ، وبغض النظر عن مدي صدق هذه الأيمانات إلا أنها مؤشر يوضح تأثير الدين في سلوكياتهم ،

أمثلة علي النذور والعمائر والصدقات في العصر المملوكي :

بل إن من أوضح الأمثلة علي توغل هذه المشاعر والعقائد في نفوسهم النذور التي كانوا ينذرونها إذا كانوا في ضيق أثناء صراعاتهم وقد سجل المؤرخون أمثلة علي بعض هذه النذور ومن أشهرها نذر الملك المؤيد شيخ المحمودي الذي كان مسجوناً في سجن من أبشع السجون في ذلك الوقت والذي كان يسمي خزانة شمايل بجوار باب زويلة حيث نذر نذراً وقام بالوفاء به بالفعل بعد أن تولي السلطنة حيث قام ببناء مسجده الشهير الموجود إلي الآن في نفس موضع السجن الذي كان مسجوناً فيه ، أما

---

[5] نقلاً عن كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية – الجزء الثالث – تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – تحقيق محمد زينهم ، مديحة الشرقاوي – مكتبة مدبولي

[6] تم استضافة الخليفة العباسي في مصر في عهد الظاهر بيبرس ولم يحدث ذلك أثناء حكم الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية رغم محاولة أحمد بن طولون وأبو بكر الإخشيد إقناع الخليفة باتخاذ مصر مقر للخلافة العباسية ، بينما نجح المماليك في ذلك ، أما القضاة الأربعة فمقصود بهم قضاة المذاهب الأربعة للسنة فقد كان هناك قاضي لكل مذهب (الشافعي ومالك وابن حنبل وابو حنيفة)

الصراع علي السلطة نفسه فكانوا يطلقون عليه كلمة (فتنة) وأثناء حدوث إحدي هذه الفتن اختفي الأمير لاجين المنصوري داخل مئذنة جامع ابن طولون لفترة حتي[7] انتهاء هذه الفتنة ، وكان هذا الجامع الضخم خرباً ومهجوراً في ذلك الوقت ولا تقام فيه الشعائر فأخذ الأمير لاجين علي نفسه عهداً ونذر نذراً أن يعمر هذا الجامع ويرممه إذا انتهت هذه الفتنة بسلام ووصل للسلطة وقد كان ،
فعندما صار ملكاً علي مصر قام بالوفاء بهذا النذر
وليس أدل علي تمكن الدين من المماليك كدليل العمائر الإسلامية ، فقد كانوا يتنافسون فيما بينهم علي بناء الأسبلة والتكيات والمدارس والمساجد والخوانق والكتاتيب ويوقفون عليها الأوقاف لتستمر بعد وفاتهم ، بل إن من الأمثلة الطريفة التي تؤكد لجوءهم وتضرعهم إلي الله سبحانه وتعالي وهم في قمة الضعف الإنساني عندما يمرض أحدهم مرضاً شديداً يقوم باختيار أفضل فرس لديه من خيوله – وما أدراك ما الخيول بالنسبة لهم – ويرسله ليعرض للبيع ويتصدق بثمنه كاملاً من منطلق ما ورد في الأثر الشريف (داووا مرضاكم بالصدقة) فإلي هذا الحد كان اعتقادهم ويقينهم وتوكلهم ،

<u>الخيول المملوكية :</u>

وعلي ذكر[8] الخيول لابد لنا أن نلقي الضوء علي أهميتها عند المماليك فعن أهمية الخيول في العصر المملوكي كتب الكاتب الكبير جمال الغيطاني في كتابه الممتع ملامح القاهرة في ألف سنة ما ملخصه :
(نتجه إلي ميدان الرميلة الممتد تحت قلعة الجبل ، ربما كان التجول في سوق الخيل مدخلاً طبيعياً إلي عالم رحب وثيق الصلة بكافة تفاصيل الحياة خلال العصور الوسطي ، لم يتغير موقع هذا السوق طوال العصر الوسيط ، ترتفع صيحات الدلالين والمنادين ، وأنواع عديدة من الخيول
لكنها موزعة علي ثلاثة أقسام رئيسية ، الخيول العربية ، أنفسها وأغلاها قيمة مطلوبة للسباق وللحاق ، مصدرها بلاد الحجاز ونجد واليمن والشام والعراق ومصر وبرقة ، والنوع الثاني تركي أو أعجمي ، وكانت تسمي الهماليج أو الأكاديش ، مرغوبة لصبرها علي السير الحثيث وسرعة المشي ،
النوع الثالث مولد بين العربية والأعجمية ، إذا كان الأب أعجمياً والأم عربية قيل له هجين وهي وسط بين النوعين السابقين ، أما الخيول الإفرنجية فهي أفشل الأنواع وأرخصها ثمناً هنا ، ولا يقبل عليها أحد ، الخيول العربية نفسها تنقسم إلي عدة أنساب ، الحجازية أشرفها ، والنجدي أيمنها والمصري أفرهها ، والغربي أنسلها ، وعندما ترد السوق خيول مؤصلة فإنها تعرض علي السلطان

---

[7] كانت هذه الفتن تنتهي بصاحبها إلي القبر أو العرش أو الهروب أو النفي أو السجن ، فليس من السهل أن يقرر أحد الأمراء أن يدخل في صراع للوصول إلي العرش فهي مغامرة كبري غير مأمونة

[8] لاحظ عزيزي القارئ أن الكتابة تنتقل أحياناً من موضوع إلي آخر عندما تأتي المناسبة للحديث عنه من خلال هذا البحث لتعم الفائدة وسيتم مراعاة العودة دائماً للسياق العام للبحث بقدر الإمكان

كان السلاطين مهتمين جداً باقتناء أنفس الأنواع وأنقي الأنساب - - - - - ، كان الناصر بن قلاوون شغوفاً بجلب الخيول العربية ، -- - وأفرد لها دفاتر تسجل أنساب الخيل كما تسجل أنساب الآدميين ، وعندما مات ترك خلفه ما يقرب من ثمانية آلاف فرس في اصطبلاته ، أما السلطان برقوق - - فقد خلف وراءه ستة آلاف فرس ، كان اقتناء الخيول والاهتمام بها مظهراً من مظاهر القوة والجاه ، ولا عجب ، فقد قام النظام المملوكي علي دعامتين ، الفارس والفرس ، ربما كان هذا سبباً قوياً في أهمية سوق الخيل وقربه من قلعة الجبل مركز الحكم ورمز السلطة في مصر وقتئذ ،

في السوق نري ألواناً عديدة ، غير أن الألوان الأساسية أربعة ، وما عدا ذلك متفرع منها :

الأول : اللون الأبيض وكان سلاطين المماليك يفضلونها ، ويطلقون عليها الفرس البوز ، ويذكر ابن إياس في بدائع الزهور أن السلطان الغوري كان يخرج في المواكب ممتطياً فرس بوز أبيض

الثاني : هو الأسود ، وكل فرس شديد السواد كان يطلق عليها أدهم

والثالث : هو اللون الأحمر ، ويسمي الكميت ، واللون الرابع هو الأصفر

ومعرفة ألوان الخيل ضرورية بالنسبة للفرسان - - - وأحياناً كان بعض الفرسان يحرصون علي ركوب فرس ذات لون معين في كل يوم - - - ولهذه الألوان علاقة بالتفاؤل ، ولا يقتصر التفاؤل والتشاؤم علي اللون العام للفرس ، وإنما يتعلق الأمر ببعض العلامات في جسده ، فالغرة ، أي البياض الذي يكون في وجه الفرس ، إذا استدارت أو كانت تشبه حرف الحاء فإنها تدل علي اليمن والبركة ، وإذا أصاب البياض خداً دون الآخر فإن الفرس يكون مكروهاً ويتشاءم به ، كذلك إن غطت عيناً دون الأخري ، فيصبح من المتوقع أن تقتل مع صاحبها ، أما إذا غطت العينين فإنها تقهر مع فارسها ، وإن مالت إلي اليمين تدل علي الشؤم ، وإلي اليسار فإنها تدل علي المكاسب ، وإن وصلت إلي الأنف فإنها تدل علي البركة والخير ، وفي سنة 802هـ 1399م ، كسر الأمير تنم وسقط أسيراً ، واستفسر المؤرخ ابن تغري بردي عن سبب وقوع الأمير عن فرسه ثم أسره ، فقالوا كان في فرسه شؤم ، وأشاروا إلي هذه العلاقة ، وقالوا : إن أصحابه نهوه عن ركوبه فأبي ، وفي سوق الخيل نلاحظ أن المشترين والفاحصين يطلبون التحديق لاختبارها وفحصها والتفرس له قواعد ، فلابد أن ينظر إلي الفرس في جميع حالاته خاصة أثناء الجري والفرس الجيد يعرف من شدة نفسه ، وحدة نظره ، وصغر كعبيه ، ورقة جحافله ، وقصر ساقيه ، وقلة التوائه ، ولين التفاته ، وإذا نظر الإنسان إلي آثار قوائمه وقت جريه وقاس ما بينهما ، فإذا كانت ستة أذرع يكون فرساً سباقاً - - كما يجب أن يكون صافياً عن الصهيل فهذا دليل علي صحة الرئتين ، وعلامات أخري عديدة كان المتفرسون يعرفونها وسجلتها كتب

الفروسية ، – – –)[9] ، ولعلك أدركت عزيزي القارئ بعد هذا العرض ماذا تعني الخيول بالنسبة للمماليك حتي يتم بيع أفضلها والتصدق بثمنه

فإذا كانت سلوكيات المماليك وقراراتهم وصراعاتهم ومنشآتهم لها صبغة دينية أو هكذا تبدو علي الأقل فيمكننا أن نؤكد أن الدين كان من الثوابت الراسخة في نفوسهم ، أما القتال فهو حرفتهم الوحيدة التي تعلموها

مكانة علماء الدين لدي المماليك :

وكان للعلماء المسلمين مكانة خاصة جداً لدي المماليك ، وعن هذا الموضوع كتب د محمود الحويري ما ملخصه : (– إذا كان المماليك قد كونوا طبقة عسكرية شديدة البأس – – فقد أدي ذلك إلي ظهور علماء الدين المصريين الذين وقفوا أمام استبداد المماليك ، وتكلموا بلسان الشعب المصري باعتبارهم من أبناءه ، ودافعوا عنه ضد كل طغيان ، وبلغ رجال الدين في دولة المماليك مكانة سامية ، جعلت سلاطين المماليك يستمعون إلي شكواهم ويجيبون طلباتهم ، بل توجسوا من بعضهم خيفة ، وليس أدل علي ذلك من أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان يزجر السلطان الظاهر بيبرس عن المظالم وينهاه عنها – –)[10] كما أن (– قاضي قضاة الحنفية شمس الدين الحريري كان شديد السطوة لا تأخذه في الله لومة لائم وكانت الأمراء تخافه ولقد ذكر لابن بطوطة أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قال يوماً لجلسائه : " إني لا أخاف أحداً إلا شمس الدين الحريري " ومن هذا المنطلق كان المماليك يقربون علماء الدين والقضاة المصريين ، حرصاً منهم علي تدعيم سلطتهم بالنفوذ الديني –)[11] ، (– وكثيراً ما كان السلطان المملوكي يرجو نصح علماء الدين باعتبارهم أهل الحل والعقد ولا يقوم بحرب أو يتخذ قرارات عليا هامة تمس أمور الدولة إلا بعد استشارتهم ، هذا في الوقت الذي كان رجال الدين يعتبرون سلاطين المماليك درع الأمة الإسلامية وأن احترامهم من احترام الإسلام –)[12] ،

شرعية الفراغ :

ولكن لماذا كانت كل هذه الصراعات علي السلطة ؟ بل كيف وصلت السلطة إليهم ؟ وعلي أي أساس وأي شرعية تولوا حكم مصر بل قل حكم مصر والشام والحجاز والعالم الإسلامي كله تقريباً في ذلك الوقت ؟ ، إن الإجابة علي هذا السؤال قد تفتح لنا مجالاً للإجابة علي السؤال السابق له ، بمعني أن الذي له الحق في تولي الحكم هو الذي سيدخل في صراع مع من ليس له الحق في توليه

---

[9] نقلاً باختصار عن كتاب ملامح القاهرة في ألف سنة للكاتب الكبير جمال الغيطاني ، ، الناشر نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة الخامسة سبتمبر2007، مقتطفات من صفحة 54 إلي صفحة 56

[10] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 241

[11] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 241

[12] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 242

ولكن هل كان للمماليك الحق في تولي الحكم ؟ أم أنها شرعية الفراغ ؟

من منطلق أنك إن تركت فراغاً فلا تلوم أحد إذا شغله ، لقد تولي المماليك الحكم وتصدروا المشهد في العالم الإسلامي بعد انتصارهم في معركة المنصورة[13] علي الصليبيين وكانت الحملة الصليبية السابعة فرنسية خالصة وبقيادة ملك فرنسا لويس التاسع الذي تم أسره

وقد مات الملك الصالح أثناء المعارك بعد أن مرض مرضاً شديداً ، وكما هو معروف قامت زوجته شجرة الدر بإخفاء خبر وفاته حتي لا يؤثر ذلك علي معنويات الجيش ، وأرسلت لاستدعاء ابنه توران شاه الذي كان خارج مصر ، وحضر لاستكمال المعركة ودون الخوض في التفاصيل انتهت المعركة بانتصار ساحق علي الصليبيين ولكن بقيادة أيوبية ، فالدولة القائمة حينئذ كانت الدولة الأيوبية وكانت تابعة للخلافة العباسية في بغداد حيث كان الخليفة العباسي رمز للأمة الإسلامية أكثر منه حاكماً لها ، فكما نعلم جميعاً أن الخلافة العباسية بدأت بداية قوية علي يد خلفاء أشداء كأبي جعفر المنصور وهارون الرشيد والمأمون والمعتصم وهو ما يسمي بالعصر العباسي الأول ثم بدأ الضعف تدريجياً إلي أن أصبح الوزراء والأمراء يسيطرون علي الدولة بل وصل الأمر إلي أن أصبح هناك ملوك وسلاطين يسيطرون علي كافة الأمور ولكن في ظل الخلافة العباسية التي كانت تمنحهم شرعية الحكم ،

فلا يتم تقليد ملك أو سلطان إلا إذا رضي عن ذلك الخليفة في بغداد حتي ولو كان مجرد إجراء رمزي ولكن مهم جداً لأي حاكم في العالم الإسلامي ، بعد أن تنازل الخليفة العباسي[14] عن معظم صلاحياته للقادة والملوك الذين يحكمون شتي بقاع العالم الإسلامي ،

<u>توران شاه ومماليك أبيه :</u>

وفي مصر أثناء معركة المنصورة كان الجيش مملوكي والدولة أيوبية والخلافة عباسية

ومات الملك الصالح وتولي ابنه توران شاه أو الملك المعظم توران شاه الحكم ، وشتان بين الابن وأبيه ، لقد كان الملك الصالح بالنسبة للمماليك أستاذهم ومعلمهم وقدوتهم وسيدهم وحبيبهم إذا جاز التعبير ، وقل ما شئت عن علاقته بهم ، وخاصة مع كبار الأمراء والقادة الذين نالوا شرف القيادة والإمارة علي يديه فجعل منهم أمراء وقدمهم علي آلاف المقاتلين وكان يعاملهم معاملة تليق به وبهم وكانوا يدينون له بالولاء حتي بعد أن أصبحوا ملوكاً كان لقب كل منهم ينتهي بكلمة الصالحي أي ينسب نفسه للملك الصالح ومثال علي ذلك لقب الأمير بيبرس عندما تولي الحكم كان يدعي السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي

[1313] كانت القوات مملوكية تحت قيادة أيوبية

[14] لقد وصل الأمر بأحد الخلفاء العباسيين إلي أن أنشد شعراً يعبر عن أحواله كما ورد بكتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي

أليس من العجائب أن مثلي - - - يري ما قل ممتنعاً عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا - - - وما من ذاك شئ في يديه

إليه تحمل الأموال طراً - - - ويمنع بعض ما يجبي إليه

هكذا كان الملك الصالح نجم الدين أيوب رمزاً كبيراً قد تؤدي إشاعة خبر وفاته إلي انهيار معنويات مماليكه ، وجاء توران شاه الذي علي ما يبدو لم يكن في حكمة أبيه وتعامل مع مماليك أبيه معاملة لا تليق وأشاع ضعفاء النفوس إشاعة خطيرة ومدمرة أنه سوف يتخلص من هؤلاء القادة وأنه يحتقرهم وسيقتلهم جميعاً ، فقتلوه شر قتلة ويقال أنه قتل طعناً وحرقاً وغرقاً ، وأياً ما كان قد قيل عن أنه سيقتلهم ويتخلص منهم حقيقة أم من خيال ضعاف النفوس فلا شك أن معاملته السيئة لهم كانت دليلاً ساعد أو ساهم في تأكيد هذه الإشاعات ،

سهولة تشويه عصر المماليك لمن يريد :

وضعاف النفوس موجودون في كل عصر وكل مكان وقد ذخر بهم عصر المماليك الذين غالباً يواجهون نية القتل بالقتل وسوف يصبح هذا المبدأ طوال تاريخهم فيما يبدو وهي قاعدة لا تعرف الرحمة والمبرر بالطبع هو الدفاع المشروع عن النفس والله أعلي وأعلم ، ولا يمكن التعميم دون التحقق من كل حالة علي حدة ، ومن يريد تشويه تاريخ المماليك لن يجد أي صعوبة في ذلك بل علي العكس سيجد ذلك ميسراً والأمثلة كثيرة وواضحة علي هذا النوع من الصراع الذي سنحاول أن نفهم أبعاده ودوافعه وكيف تزامن مع ما حققوه من إنجازات في كافة المجالات ، إنه أم محير جداً ومدهش ومثير فكيف حقق هؤلاء المتنافسون كل هذه الانتصارات الساحقة ويتركوا لنا كل هذه المنشآت والآثار الرائعة ويتم تصنيف أضخم الموسوعات العلمية في العصور الوسطي برعايتهم وتزدهر التجارة والصناعة والزراعة وتنتعش أحوال الشعب الذي كان بعيداً عن كل هذه الصراعات

المماليك والجنسية المصرية من وجهة نظر د محمود الحويري :

الدكتور الحويري له رأي في المماليك أود أن تعرفه فهو يعتبر أنهم كما ورد في كتابه بالحرف الواحد (- أنهم جاءوا إلي مصر كرقيق من بلاد متعددة وأمم شتي وأصول عرقية متنوعة ووجه الأهمية هنا أنهم أتوا أطفالاً صغاراً انقطعت حبالهم نهائياً بمواطنهم الأصلية وتربوا تربية إسلامية وتعلموا اللغة العربية ولم يعودوا يعرفون لهم وطناً غير مصر واستقروا فيها للأبد ومهما قيل في أن المماليك أجانب عن مصر وأنهم ولدوا في أرض غير إسلامية ، أو أنهم يرجعون في أصولهم إلي دماء غير مصرية فإن هذا القول مردود عليه ، لأن الانتماء الحقيقي للوطن يقوم أساساً علي خدمة هذا الوطن والدفاع عنه ورعاية مصالحه ، بغض النظر عن الجنس الذي يعيش فوق أرضه أو الأصول التي تحدر منها ، وهي حقيقة أثبتها التاريخ علي مداه الطويل ، فليس ثمة وطن يجري في عروق أبنائه دماء واحدة نقية خالصة ، ومصر بموقعها الجغرافي وتاريخها الطويل قد استقبلت أجناساً عديدة تركت أثرها فيها بصورة ما ، وإن كانت مصر قد امتصت تلك الأجناس وطبعتها بطابعها وشخصيتها ، فصارت مصرية ، وهذه الحقيقة تنطبق علي المماليك في مصر ، فهم الذين حموا شعبها وحاربوا باسمه وحافظوا علي استقلاله

ضد الغزاة وينبغي ألا ننسي أن المماليك منذ ظهورهم علي مسرح الأحداث في مصر ومنطقة الشرق الأوسط[15] قد ارتبطوا بالشرعية التي منحتها لهم الخلافة الإسلامية بوصفهم حماتها والمدافعين عنها وعن الإسلام ولذلك من الظلم الفادح أن نعتبر المماليك أجانب عن مصر –)[16] ، انتهي كلام الدكتور الحويري وهو رأي مهم رأيت أن أذكره لك عزيزي القارئ كما هو ، وعلي أي حال فإن المماليك كانوا في فترة ما هم القوة الوحيدة الحقيقية في الأمة الإسلامية بالكامل في وقت كانت فيه الأمة في أمس الحاجة إلي من يدافع عنها ضد الأخطار المحيطة بها وكانوا علي مستوي المسئولية في الدفاع عن المقدسات الإسلامية مهما قيل عنهم بعد ذلك ، فقد حملوا راية الجهاد في سبيل الله وهي راية يمكن أن يحملها أي مسلم مهما كانت جنسيته أو وطنه

وقد كان عصرهم من أفضل العصور التي مرت علي مصر فلو تأملنا ما كتبه الرحالة والمؤرخون والعلماء عن عصر المماليك سنجد العجب العجاب كما يقال

<u>زيارة ابن خلدون[17] لمصر :</u>

زار ابن خلدون العالم الشهير مصر سنة 784 هـ (نوفمبر 1382م) في عصر دولة المماليك الجراكسة (وكانت هذه أول مرة يري فيها القاهرة ، فقال : فانتقلت إلي القاهرة أول ذي القعدة فرأيت حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسي الملك تلوح القصور والأواوين في جوه ، وتزهر الخوانق والمدارس بآفاقه وتضيء البدور والكواكب بين علمائه ، – – ونحن لهذا العهد نري أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين ، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت – –)[18] ،

إلي هذا الحد انبهر ابن خلدون بما رآه في القاهرة ، فلقد رأي حضرة الدنيا وبستان العالم علي حد تعبيره وهو شئ محير حقاً فكيف يكون ذلك مع كل هذه الصراعات والفتن التي لو تخيلناها كما يصفها البعض بأسلوب يجعلك تشعر أنها قد تتسبب في تدمير الحضارات لا النهوض بها ، ولكن لا شك أن

---

[15] اصطلاح الشرق الأوسط يعتبر اصطلاح حديث نسبياً لأن الأمة العربية الإسلامية كانت ولا تزال من الناحية الجغرافية مركز العالم ولكن كما نعرف جميعاً فإن القوة هي التي تحدد مكان كل دولة بالنسبة لها فإذا كانت أكبر قوة في أقصي الغرب فإن العالم كله يتحول بالنسبة لها إلي شرق (فيصبح شرق ، وشرق أدني وشرق أوسط وشرق أقصي) فالموقع يتحدد طبقاً لنسبته إلي الدول الكبرى وبالتالي أصبحنا الآن في الشرق الأوسط بالنسبة لهم ولكن كان وضعنا الطبيعي هو مركز العالم كموقع وكقوة وحضارة واقتصاد وعلم والله أعلم

[16] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 240

[17] عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي 14061332 - م مؤرخ من شمال أفريقيا، تونسي المولد أندلسي الأصل، كما عاش بعد تخرجه من جامعة الزيتونة في مختلف مدن شمال أفريقيا، حيث رحل إلى بسكرة وغرناطة وبجاية وتلمسان، كما تَوَجَّهَ إلى مصر، حيث أكرمه سلطانها الظاهر برقوق، ووَلِيَ فيها قضاء المالكية، وظلَّ بها ما يناهز ربع قرن (784–808هـ)، حيث تُوُفِّيَ عام 1406 عن عمر بلغ ستة وسبعين عامًا ودُفِنَ قرب باب النصر بشمال القاهرة تاركا تراثا ما زال تأثيره ممتدا حتى اليوم ويعتبر ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع الحديث واب للتاريخ والاقتصاد

[18] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 285 ، 286

هذه الصراعات كانت تتخذ أشكالاً وأحولاً بحيث لا يعوق حدوثها سير مركب العلم والحضارة وهذا ما أحاول بحثه حتي أصل بمشيئة الله إلي نتيجة مرضية ومقنعة وإذا انتقلنا إلي الرحالة الشهير ابن بطوطة سنجده قد انبهر أيضاً بما رآه في مصر وتعجب كثيراً ليزيدنا حيرة إلي حيرتنا ولكن من هو ابن بطوطة وما هي طبيعة رحلاته ؟

ابن بطوطة ورحلاته :

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي الطنجي[19] الشهير بابن بطوطة وقد ولد في مدينة طنجة في 1304/2/24م وكان ابن بطوطة كثير الرحلات والسفر وقد مر في رحلاته الكثيرة بالعديد والعديد من البلاد الإسلامية وغير الإسلامية ثم قام بتدوين كل ما رأي وسمع خلال هذه الرحلات بقدر المستطاع ، والطريف في رحلات ابن بطوطة كما يقول د حسين مؤنس (– – وقد ذكرنا أن ابن بطوطة خرج لرحلته بمال قليل ، فكيف استطاع أن يقوم بهذه الرحلات الطويلة وهو لم يكن بتاجر يبيع ويشتري ويسد نفقات الرحلة علي الطريق ؟ – الجواب علي هذا السؤال يكشف عن ناحية من أجمل نواحي الحضارة الإسلامية ، وهي ناحية ترابط الأمة وتآخيها وتعاون أفرادها بعضهم مع بعض ، واجتهادهم في المحافظة علي وحدة أمتهم وسلامة دار الإسلام ، ذلك أنه كان هناك دائماً عالمان إسلاميان : عالم السياسة ، وكله خلافات وحروب ومكايد ، وعالم الأمة نفسها ، وهي وحدة متماسكة مترابطة كما ذكرنا – – فهذا الرجل قطع العالم الإسلامي كله من المغرب إلي اندونيسيا – – دون أن يشعر أنه خرج من بلده أو فارق أهله ووجد في كل مكان من يستقبله ويؤويه ويقدم إليه الطعام ، لا علي سبيل التكرم والتفضل بل لأنه كان هناك تنظيم محكم وضعته الأمة وقامت علي رعايته وتنفيذه دون تدخل الدولة – – وقد فعلت الأمة ذلك تنفيذاً لما نص عليه القرآن الكريم مرة بعد مرة من رعاية ابن السبيل وإكرامه وإطعامه ، وابن السبيل هو المسلم الغريب عن وطنه – – وقد أحصيت ست آيات علي الأقل في القرآن الكريم أوصي الله سبحانه فيها المسلمين بابن السبيل ، وجعل له نصيباً في أموال الناس – – لهذا حرصت الأمة وهي القيمة الحقيقية علي الدين علي تنفيذ هذا التوجيه القرآني العظيم ، فأقامت الزوايا والربط ودور الضيافة في كل مكان ورحلة ابن بطوطة أكبر دليل علي ذلك – –)[20]

وعندما تقرأ ما كتبه ابن بطوطة خلال رحلاته تشعر بعالم إسلامي آخر بعيد عن كل هذه الصراعات السياسية والمؤامرات (– تسكنه أمة واحدة يربط بين أفرادها رباط الإسلام والمودة الإنسانية ، وهذه فضيلة أكبر من فضائل هذه الرحلة فهي في الحقيقة رحلة في صميم المجتمع الإسلامي ، نراه من خلالها علي حقيقته ، هي حقيقة تسعد الإنسان وتشعره بأن الدنيا بخير مادام الإسلام بخير – –)[21]

---

[19] المختار من رحلات ابن بطوطة (د حسين مؤنس) صفحة 7

[20] المختار من رحلات ابن بطوطة (د حسين مؤنس) صفحة 14 ، 15 ، 16

[21] المختار من رحلات ابن بطوطة (د حسين مؤنس) صفحة 19

زيارة ابن بطوطة لمصر :

زار ابن بطوطة مصر في عصر المماليك البحرية وتحديداً في عهد السلطان الناصر محمد ابن قلاوون وهذا السلطان بالذات كان عهده عهد استقرار ورخاء غير عادي فقد جاء بعد رحلة كفاح طويلة ضد التتار والصليبيين وأصبح هناك هدوء نسبي يسود الأمة وراحة من الحروب الكثيرة الناجحة ، ويعتبر عهد الملك الناصر محمد من أفضل عصور سلاطين المماليك إن لم يكن أفضلها علي الإطلاق والله أعلم ، وقد وصف ابن بطوطة الملك الناصر محمد بأن له سيرة كريمة وفضائل عظيمة (وكفاه شرفاً انتماءه لخدمة الحرمين الشريفين وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء)[22] ولم يكتف ابن بطوطة بوصف الملك فقط بل قال (لكن الزاوية التي بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين وكهف الفقراء والمساكين خليفة الله في أرضه القائم من الجهاد بنفله وفرضه أبو عنان أيد الله أمره وأظهره وسني له الفتح المبين)[23] وقد انبهر ابن بطوطة بمصر بلا شك فقد كانت مركز للحضارة والعلم ووصفها بقوله (هي أم البلاد وقرارة فرعون ذي الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة المتناهية في كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ومحط الضعيف والقادر – – تموج موج البحر بسكانها – – قهرت قاهرتها الأمم وتملكت ملوكها نواصي العرب والعجم – – كريمة التربة مؤنسة لذوي الغربة – – ويقال أن بمصر من السقائين علي الجمال اثني عشر ألف سقاء – – وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفاً – – تمر صاعدة إلي الصعيد منحدرة إلي الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات – – وعلي ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة وهو مكان النزهة والتفرج وبه البساتين الكثيرة الحسنة – – وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها وأما المارستان الذي بين القصرين – – فيعجز الواصف عن محاسنه وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر – – والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة للفقراء)[24] ، وإذا حاولنا أن نستخرج ما نحتاج إليه في بحثنا هذا من كلام ابن بطوطة سنجد أنه يصف المنافسه بين الأمراء ولكنه لا يشير إطلاقاً إلي الصراع علي السلطة وهذا قد يعني أنه رأي من الجمال والروعة ما أنساه ذلك الصراع أو أنه قد حضر في وقت لم تكن فيه فتن وصراعات ، وما لفت نظري أيضاً في كلام ابن بطوطة جملة في منتهي الروعة حيث قال كريمة التربة مؤنسة لذوي الغربة فهي جملة لا شك قد شعر بها قبل أن يكتبها والسؤال هنا : هل يمكن أن تكون مؤنسة له ولذوي الغربة ولا تكون كذلك لأهلها وشعبها ؟

ولكن أكثر ما يدهشني في كلام ابن بطوطة هو حديثه عن المدارس حيث ذكر أنه لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها ، رغم أنه استطاع أن يعرف من المصريين عدد السفن والمراكب في النيل فما هو

---

[22] المختار من رحلات ابن بطوطة (د حسين مؤنس) صفحة 58

[23] المختار من رحلات ابن بطوطة (د حسين مؤنس) صفحة 58

[24] المختار من رحلات ابن بطوطة (د حسين مؤنس)صفحة 51 ، 52

الشئ الأسهل في الحصر والعد المراكب أم المدارس ؟ وقد يكون كلامه له صيغة المبالغة بالطبع من كثرة ما شاهد من المدارس ، وعلي كل حال فمن الواضح بل المؤكد ان المماليك في ذلك الوقت كانوا رعاة للعلم والعلماء ، وسيكون الفصل القادم عن هذا الموضوع بمشيئة الله